مراثي الشعراء
لرسول الله ﷺ

الدكتور أحمد كوتي

هذا البحث يتكون من جزءين : نذكر في الأول منهما المراثي التي قيلت في رسول الله ﷺ ، وأسماء الشعراء الذين قالوها . ونبحث في الثاني كيف تُصوّر تلك الأشعار أخلاق النبي ﷺ وشخصيته بحثاً موجزا .

اذا نظرنا الى المراثي التي قيلت في رسول الله ﷺ عرض لنا أمران : الأول أنّ الاشعار التي نُظمت في رثاء رسول الله ﷺ لم تجمع في كتاب ، ولم يفرد لها بحث مستقل ، او فصل قائم بذاته ، في أيّ من كتب السيرة النبوية أو المطوّلات التاريخيّة أو الأخبار الأدبيّة . فلذلك يقول الأديب الناقد محمد عبد الغني حسن في مقالته (مراثي الشعراء للرّسول عليه السلام) : « وعجيب جدا أن تمر على الأمة العربية الاسلامية هذه القرون الطويلة ، وأن تمر على وفاة هاديها وزعيمها محمد بن عبد الله أكثر من ثلاثة عشر قرناً فلا تجد موضوع وفاته ﷺ مضوما ملموما ، كما تجد موضوع مولده ، وانّما يصادف القارئ عن وفاة النبي نبأ هنا ، أو مرثيّة هناك »[1] .

والأمر الثاني : هو أنّ المراثي التي قيلت في النبي ﷺ قليلة جدا ، لم ترد بعدد كبير كما كنا نتوقع . فغريب جدّا أنّ الشعراء الذين قالوا الشعر

---

(١) دراسات في الادب العربي والتاريخ بقلم محمد عبد الغني حسن ، الدار القوميّة للطباعة والنشر ، القاهرة ، مقالة (مراثي الشعراء للرسول عليه السلام) ص ١٤٩ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

في كل حادثة من حوادث حياة الرسول ﷺ حتى في أقلها شأنا ، لم يقولوا شعرا كثيرا في وفاته عليه السلام وهي بلا شك أعظم فادحة نزلت بالأمة الاسلامية في تاريخها كله .

وعجيب أيضا أنّ الطّبري وابن الأثير لم يذكرا في تاريخهما مرثية واحدة من مراثي الشعراء للرسول ﷺ . وأمّا ابن كثير الذي هو اكثر المؤرّخين نقلا للأشعار فلم يورد إلا قصيدتين في رثاء النبي ﷺ . وهذه الظاهرة هي التي حملت محمد عبد الغني حسن على ان يقول ان المؤرخ الوحيد الذي لم يغفل ذكر مراثي الشعراء للرسول ﷺ في كتابه هو ابن هشام صاحب السيرة النبوية[٢] . وهذا القول ليس بصحيح تماما ، لأن هناك مؤرخاً آخر ايضا أعطى هذا الموضوع حقه الواجب ، هو محمد بن سعد فإنّه أورد في « طبقاته » مراثي الشعراء الكثيرين للرسول ﷺ في حين أن ابن هشام لم ينقل في « سيرته » إلا أشعار حسّان بن ثابت في رثائه ﷺ .

مراثي حسان للنبي ﷺ :

وليس من العجيب أن حسان بن ثابت له حظ أوفر من المراثي التي قيلت في رسول الله ﷺ لِمَا نعرف من كونه شاعر النبي ، واتصاله به وقربه منه الشديدين وتنصيبه نفسه للدفاع عنه وعن دعوته . فرُوي لحسان خمسة أشعار في هذا الموضوع[٣] وأطولها قصيدته الدالية التي تبلغ

(٢) الكتاب نفسه والمقالة نفسها ، ص ١٥٠ .

(٣) انظر هذه الأشعار في ديوان حسان بن ثابت الأنصاري ، دار صادر بيروت ص ٥٤ ـ ٥٩ ، ٦٣ ، ٩٤ ، السيرة النبوية لابن هشام ، حققها وضبطها وشرحها ووضع فهارسها مصطفى السقا وابراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي ، الطبعة الثالثة ١٣٩١ هـ ١٩٧١ م ـ دار احياءالتراث العربي ، بيروت لبنان ج ٤ ص ٣١٧ ـ ٣٢٢ ، كتاب الطبقات =

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

عدّة أبياتها ستّة وأربعين بيتا ومطلعها :

بِطَيْبَــةَ رَسمٌ للرســول ومعهــدُ منير وقــد تعفو الرسومُ وتَهْمــدُ

ومراثي حسان كلها تصور بوضوح أثر التفجع البالغ بوفاة النبي ﷺ في نفس الشاعر ، وتنهمر فيها شاعريّته الغزيرة عن سيل من عواطف الحزن والوجد الشديدة الصادقة ، فننقل هنا بعض الأبيات من قصائده المتفرقة على سبيل المثال لكي نرى كيف تأثر حسّان بن ثابت بوفاة الرسول ﷺ وإلى أيّ حد تفجع به .

وجهي يقيــك الترب لهفي ليتني غُيبتُ قبلك في بقيع الغرقد
بأبي وأمي من شهدتُ وفاته في يوم الاثنين النبي المهتدي
فظللت بعد وفاته متبلّدا متلددا يا ليتني لم أولد
أأقيم بعدك بالمدينة بينهم يا ليتني صُبّحتُ سُم الأسود
يا بكر آمنة المبارك بكرها ولدته محصنة بسعد الأسعد
نورا أضاء على البرية كلها من يُهد للنور المبارك يهتدي
يا رب فاجمعنا معا ونبينا في جنة تثني عيون الحُسّد
في جنّة الفردوس فاكتبها لنا ياذا الجلال وذا العلا والسودد

• • •

فليتنا يوم واروه بملحده وغيبوه وألقوا فوقه المدرا
لم يترك الله منا بعده أحدا ولم يُعِشْ بعده أنثى ولا ذكرا

• • •

فبَكّي رسولَ الله يا عينّ عبرة ولا أعرفنك الدهرَ دمعك يجمدُ

= الكبير تصنيف محمد بن سعد كاتب الواقدي بتصحيح ادوارد سخو ، دار المعرفة للطباعة والنّشر ، بيروت ، لبنان ـ ج٢ ق٢ ص٩٠ ـ ٩٢ البداية والنهاية لأبي الفداء الحافظ ابن كثير ، الطبعة الأولى ١٩٦٦ م مكتبة المعارف ، بيروت ، ج٥ ص٢٨٠ ، ٢٨١

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ومالك لا تَبكين ذا النعمة التي على الناس منها سابغ يتغمدُ
فجودي عليه بالدموع وأعولي لفقد الذي لا مثله الدهرَ يوجد

ولم يكن حسان وهو يرثي رسول الاسلام معبّراً عن نفسه وحده . أو عن المسلمين بصفة عامة ، بل أيضاً صوّر مصيبة الأنصار في النبي ﷺ أدق تصوير حتى لقد خشي على مصير الأنصار بعد وفاته عليه السلام . وما أصدقه وهو يقول في هذا المعرض :

يا ويح أنصار النبي ورهطه بعد المُغَيَّب في سواء الملحد
ضاقت بالانصار البلادُ فأصبحوا سُودا وجوههم كلون الإثمد

ولم يحزن بوفاة رسول الله ﷺ الناس فقط بل تفجعت عليه البقاعُ والبلاد والأماكن التي فقدت ماعهدت وعرفت في حياته . وصارت كلها موحشةً كئيبة الا بقعة معمورة بلحده ، هي البقعة التي ضمت جسده الطاهر . فيقول حسان :

وامست بلاد الحرم وَحشا بقاعها لغيبة ما كانت من الوحي تعهدُ
قفارا سِوَى معمورة اللحد ضافها فقيدٌ يبكيه بلاط وغَرْقَدُ
ومسجده فالموحشات لفقده خلاء له فيه مقام ومقعد
وبالجمرة الكبرى له ثم اوحشت ديار وعرصات وربع ومولِد

ولا عجب أن أزواج النبي ﷺ هنّ أشد الناس تفجعا بموته عليه السلام فبئسن ويئسن من الحياة حتى صرن كالرواهب الزّاهدات ، هكذا يقول حسان بن ثابت في هذين البيتين له :

أمسى نساؤك عَطَّلْن البيوتَ فما يضربن فوق قفا ستر بأوتاد
مثل الرواهب يلبسن المباذل قد أيقنّ بالبؤس بعد النعمة البادي

مراثي كعب بن مالك :

وعجيب جدا أن كعب بن مالك - وهو من نعرف منزلته عند

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

رسول الله ﷺ ودفعه الأذى عنه عليه السلام والقصائد الغراء التي قالها لأجل ذلك ـ لم يقل شعراً كثيرا في وفاته ﷺ ولم يُرو له بهذه المناسبة إلا ثلاثة أشعار صغيرة ، والشعر الأول[٤] مطلعه :

يا عين فابكي بدمع ذَرَى ... لخير البريّة والمصطفى

والثاني[٥] مطلعه :

وباكية حراء تحزن بالبكا ... وتلطم منها خدّها والمقلدا

والثالث[٦] مطلعه :

ألا أنعى النبيّ إلى العالمينا ... جميعا ولا سيما المسلمينا

ولكن محمد عبد الغني حسن لم يذكر الا الشعر الثاني فيظهر أنه لم يقف على الشعرين الآخرين .

ومن الغريب أنّ ابن هشام لم يرو شيئاً من شعر كعب بن مالك في رثاء النبي ﷺ وهو الذي أورد في سيرته كثيراً من أشعار كعب في مناسبات أخرى وحفظها من الضياع . ونورد هنا بعض أبيات كعب نموذجا لشعره في رثاء النبي ﷺ :

فُجعنا بخير الناس حيا وميتا ... وأدناه من ربّ البرية مقعدا

وأفظعهم فقدا على كل مسلم ... وأعظمهم في الناس كلهم يدا

لقد ورثت أخلاقه المجد والتقى ... فلم تلقه إلا رشيدا ومرشدا

---

(٤) ديوان كعب بن مالك الأنصاري دراسة وتحقيق سامي مكي العاني ، الطبعة الأولى مكتبة النهضة ، بغداد ١٩٦٦ م / ١٩٨٦ هـ ، ص ١٧٣ ؛ طبقات ابن سعد ج٢ ق٢ ص٩٢ ، ٩٣ .

(٥) ديوان كعب بن مالك ص١٩٨ ، دراسات في الأدب العربي والتاريخ لمحمد عبد الغني حسن ، ص١٢١ .

(٦) ديوان كعب ص٢٨١ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ألا انعى النبيّ لأصحـــابـــه وأصحاب أصحـابـه التـابعينـا

• • •

الا انعى النبيّ الى من هـــدى من الجن ليلـــة اذ تسمعـونـــا
لفقـــد النبيّ إمـــامِ الهـــدى وفقـــد المـلائكـــة المنزلينـــا

مرثية عبد الله بن أنيس :

ومن الشعراء الذين رثوا رسول الله ﷺ عبد الله بن أنيس وكان من الصحابة الذين شهدوا بيعة العقبة ، ومن الأوائل الذين تسابقوا الى قتل ابن أبي الحُقَيق . وكان أيضاً شاعراً ، قد روى ابن هشام بعض اشعاره . وقد أورد محمد بن سعد شعراً له في رثاء الرسول ﷺ(٧) مطلعه :

تطـــاول ليلى واعترتني القـوارع وخطبٌ جليـلٌ للبليـة جـامـعُ

ومن هذه القصيدة :

فلـو رَدَّ ميتـاً قتـلُ نفس قتلتُهـا ولكنّـه لا يـدفعُ المـوتَ دافـعُ
فـآليت لا اثني على هلـك هـالـكٍ من النـاس مـا أوفى ثبيرٌ وفـارعُ
ولكنني بـــاك عليـــه ومُتبـعٌ مصيبتـــه إنّى الى الله راجـــعُ
وقـــد قبض الله النبيّين قبلـــه وعـادٌ أصيبت بـالرُّزى والتبـابع

ومن هذه القصيدة أبيات يطلب فيها الشاعر الى قريش أن يقلّدوا إمارة المسلمين بعد وفاة النبي ﷺ واحداً من الثلاثة : أبي بكر ، وعُمر وعلي رضي الله عنهم ، وهي

فيـاليت شعري من يقـوم بـأمرنـا وهـل في قريش من إمـامٍ ينـازع
ثـلاثـة رهـط من قريش هُمُ هم أزمـة هـذا الأمر والله صـانـع
عليٌّ أو الصـــديـق أو عُمَرٌ لهـــا وليس لهـا بعـد الثـلاثـة رابـع

(٧) طبقات ابن سعد ج٢ ق٢ ص٩٠ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

فإنْ قال منّا قائل غير هذه أبينا وقلنا اللهُ راءٍ وسامع
فيالقريش قلدوا الأمر بعضهم فإنّ صحيح القول للنّاس نافع

مرثية أبي سفيان بن الحارث :

ومن قائلي المراثي في النبي ﷺ أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، ابن عمه عليه السلام ، وقد أسلم يوم فتح مكة ، وكان قبل ذلك من شعراء قريش الذين هجوا رسول الله ﷺ ، وبعد إسلامه صار من مؤيّدي الرسول ﷺ ودينه . فلما توفي رسول الله ﷺ رثاه أبو سفيان بأبيات رواها ابن كثير في تاريخه[٨] ، وانفرد بذكرها ابن كثير ، ولم يذكرها ابن هشام او أحد من المؤرخين . ومطلع القصيدة :

أرِقْتُ فبات لَيْلِي لا يزولُ وليلُ أخي المصيبة فيه طولُ

ومن هذه القصيدة :

لقد عظمت مصيبتُنا وجلّت عشيّةَ قيل قد قُبض الرسولُ
وأضحت أرضنا مما عراها تكاد بنا جوانبُها تميلُ
فقدنا الوحي والتنزيل فينا يروح به ويغدو جبرئيلُ

ومنها أيضا :

نبي كان يجلو الشكُّ عنا بما يُوحَى اليه وما يقولُ
ويهدينا فلا نخشى ضلالاً علينا والرسولُ لنا دليلُ

مرثية أبي ذُؤيب الهذلي :

ومما قيل في رثاء النبي ﷺ ستةُ أبيات رويت لأبي ذؤيب الهذلي[٩] ومن

---

[٨] البداية والنهاية ج٥ ص٢٨٢ [وقد نقلها ابن كثير عن كتاب الروض الأنف (٢ : ٣٧٩ ـ ٣٨٠) للسهيلي] .

[٩] شرح شواهد المغني تأليف الإمام جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (لجنة التراث العربي ـ دمشق ١٩٦٦ م) ج١ ، ص٣٠ ، ٣١ [وانظر الاستيعاب لابن عبد البر ترجمة أبي ذؤيب الهذلي ، والروض الأنف للسهيلي ٢ : ٣٧٩] .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

هذه الأبيات :

كُسفت لمصرعه النجومُ وبدرُها وتَـزَعْـزَعَتْ آكامُ بطن الأبطـح
وتحركت آجـامُ يثرب كلهـا ونخيلها لحلـول خطب مفـدح
ولقد زجرتُ الطير قبل وفاتـه بمصـابـه وزجرت سعـد الأذبح

مراثي أبي بكر :

الى الآن كنّا نبحث عن المراثي التي قالها رجال عُرفوا بالشعر ولا يُشك في كونهم شعراء ، ولكن ما بال أولئك الثلاثة الذين كانوا أشد الناس اتصالا بالنبي ﷺ وأكثرهم حظوة عنده ألم يقولوا بيتا في وفاة الرسول ﷺ ، وهي أفدح حدث نزل بهم وبالمسلمين ، بلى إنّهم أيضاً قالوا الشعر في رثاء النبي ﷺ ، وإن لم يكونوا شعراء بالمعنى المتعارف . فلا عجب في ذلك اذ نذكر أنّ الشعر كان أقوى وسيلة اتخذها العرب في ذلك الزمان للتعبير عن تأثراتهم وانفعالاتهم وعواطفهم ، كما لا عجب في أن وفاة الرسول كانت فجيعة عظيمة حلت بالمسلمين وصدمتهم صدما شديدا حتى إنّ الذين لم يكونوا شعراء منهم اندفعوا يقولون الشعر فيها .

وهذا أبو بكر الصديق قد رُويت له ثلاثة مقاطيع في بكاء حبيبه الرسول[١٠] فنذكر هنا بعض هذه الأبيات على سبيل المثال :

فكيف الحيـاةُ لفقـد الحبيبِ وزينِ المعـاشر في المشهـدِ
فليت المات لنـا كلّنـا وكنّـا جميعـا مع المهتـدي

• • •

ياليتني من قبل مهلك صاحبي غُيّبتُ في جـدثٍ عليّ صُخُورُ
فلتحـدُثَنّ بـدائـعٌ من بعـده تعيـا بهنّ جوانـحٌ وصـدورُ

• • •

(١٠) طبقات ابن سعد ج٢ ق٢ ص٨٩ ، ٩٠

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ليتَ القيامةَ قامت بعد مهلكه ولا نرى بعده مالا ولا ولدا
والله أثني على شيء فجعتُ به من البرية حتى أدخل اللحدا
كم ليَ بعدكَ مِن هَمٍّ يُنصِّبُني اذا تذكرتُ أني لا أراك بدا

مرثية عمر :

وهذا عمر بن الخطاب يسكب حزنه الشديد البالغ لفراق النبي ﷺ في شعر له كله عاطفة عميقة وتفجع شديد . فهذا نصه كما ورد في « الذخائر والأعلاق في آداب النفوس ومكارم الأخلاق » لأبي الحسن الباهلي[١١] :

مازلتُ مذ وُضع الفراش لجنبه وثوى مريضا خائفا أتوجعُ
شفقا عليه أن يزول مكانه عنّا فنبقى بعده نتفجع
نفسي فداؤك ! من لنا في أمرنا أم من نشاوره إذا نتوجع ؟!
واذا تحل بنا الحوادث من لنا بالوحي من ربّ رحيم يسمع ؟
ليت السماء تفطرت أكنافها وتناثرت منها النجوم الطلع !
لّما رأيتُ الناس هدّ جميعَهم صوتٌ ينادي بالنعيّ فيسمع
وسمعتُ صوتاً قبل ذلك هَدّني عباسُ ينعاه بصوت يفظع
فَلْيبْكِه أهلُ المدائن كلها والمسلمون بكل أرض تجزع

مرثية علي بن أبي طالب :

وقد روى الباهلي في « الذخائر » خمسة أبيات قالها عليٌّ بن أبي طالب في بكاء النبي ﷺ[١٢] فهي كما يلي :

(١١) نقلا عن دراسات في الأدب العربي والتاريخ لمحمد عبد الغني حسن ، ص ١٦٤ ، ١٦٥ والبيت الأول منه في جمهرة أشعار العرب تأليف أبي زيد محمد بن ابي الخطاب القرشي ـ دار صادر ـ دار بيروت ، بيروت ١٣٨٣ هـ ـ ١٩٦٣ م ، ص٣٧ .

(١٢) نقلا عن دراسات في الادب العربي والتاريخ ص١٦٥ . والبيت الأول منها في جمهرة أشعار العرب ص٣٧ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ألا طَرَق النـــاعي بليـل فراعني وأرقني لمـا استقـل منـاديـا !
فقلت لـه لمـا رأيتُ الـذي أتى أغير رسـول الله ان كنت ناعيـا
فحقق مـا أشفقتُ منـه ولم يبـل وكان خليلي عـزة وجمـاليـا
فـوالله مـا أنسـاك أحمـد مـا مشت بي العيسُ في أرض وجاوزتُ واديا
وكنت متى أهبط من الأرض تلعةً أرى أثرا منـه جديـداً وعـافيـا

مراثي النساء :

لم ينفرد الرجال برثاء النبي ﷺ بل شاركتهم النساء أيضاً في ذلك . ومصادرنا تروي بهذه المناسبة أشعاراً لفاطمة بنت محمد ﷺ . وصفية بنت عبد المطلب ، وأروى بنت عبد المطلب ، وعاتكة بنت عبد المطلب ، وهند بنت الحارث بن عبد المطلب ، وهند بنت أثاثة ، وعاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل ، وأمّ أيمن .

فاطمة :

واما فاطمة الزهراء فقد رُويت لها ثلاثة أشعار في رثاء أبيها . ومنها شعر ذكره أبو إسحاق الحُصري[١٣] ونقله الأستاذ عمر رضا كحالة في موسوعة « أعلام النساء »[١٤] . والأبيات كما يلي :

اغبرَّ آفـاق السماء وكُـوّرت شمسُ النهـار وأظلم العصرانِ
فـالأرضُ من بعـد النبيّ كئيبـةٌ أسفـاً عليـه كثيرةُ الرجفـانِ
فليبكـه شرقُ البـلاد وغربهـا وليبكـه مضر وكل يمـاني
وليبكـه الطـور المعظم جـوه والبيت ذو الأستـار والأركان
يـا خـاتم الرسـل المبـارك ضـوؤه صلى عليـك منزّلُ الفرقـان

(١٣) زهر الآداب وثمر الألباب لأبي اسحاق ابراهيم بن علي الحصري القيرواني ـ الطبعة الرابعة ١٩٧٣ م دار الجيل بيروت ، ج١ ص٧٠ [وانظر الروض الأنف ٢ : ٣٨٠] .
(١٤) ج٣ ص١٢٠٤ ، نقلا من دراسات في الأدب العربي والتاريخ ص١٦٦ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

والشعر الثاني يتكون من بيتين قالتهما فاطمة وهي تقف على قبر النبي وتبكي[١٥] :

ماذا على من شَمّ تربةَ أحمدٍ ألاّ يشمّ مدى الزمان غواليا ؟
صُبت عليّ مصائبٌ لو أنها صبت على الأيامِ صرن لياليا

والشعر الثالث أيضاً مؤلف من بيتين قالتهما وهي تقف على قبر أبيها :[١٦]

إنّا فقدناك فقدَ الارضِ وابلَها وغاب مذ غبت عنّا الوحيُ والكتبُ
فليت قبلك كان الموت صادفنا لمّا نعيت وحالت دونك الكثب

صفية بنت عبد المطلب :

وأما صفية عمة النبي ﷺ فلها أكبر نصيب من مراثي النساء في الرسول . وقد روى محمد بن سعد لها سبعة أشعار في رثاء النبي ﷺ[١٧] . وعلاوة على هذا ذكر الباهليّ في « ذخائره » قصيدة يائية لها في رثاء النبي ﷺ[١٨] . وليس في وسعنا أن ننقل هذه الأشعار كلها . ولذلك نكتفي بذكر أبيات متفرقة منها على سبيل المثال :

ما لعينيّ لا تجودان ريا إذْ فقدنا خير البرية حيّا
يوم نادى الى الصلاة بلال فبكينا عند النداء مليا
لم اجد قبلها ولست بلاق بعدها غصّة أمرّ عليا

• • •

اذْ رأينا بيوته موحشات ليس فيهنّ بعد عيش حبيبي

(١٥) أعلام النساء لعمر رضا كحالة ، نقلا من دراسات في الأدب العربي والتاريخ ص١٦٧ .

(١٦) أعلام النساء ، نقلا عن دراسات .....ص١٦٧ .

(١٧) طبقات ابن سعد ج٢ ق٢ ص٩٤ ـ ٩٦ .

(١٨) نقلا عن دراسات .... ص١٦٨ ، ١٦٩ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

اورث القلبَ ذاك حزنا طويلاً خالط القلب فهو كالمرعوب
ليت شعري وكيف أمسي صحيحا بعد أن بِينَ بالرسول القريب

• • •

فأوحشت الأرضُ من فقده وأي البرية لا يُنكبُ
فمالِيَ بعدك حتى الما ت إلا الجوى الداخلُ المُنصِبُ

• • •

فإمّا تُمْسِ في جَدَثٍ مقيماً فقِدْماً عشت ذا كرم وطيبِ
وكنتَ موفّقا في كل أمر وفيا ناب من حدث الخطوب

أرْوَى بنت عبد المطلب :

وروى ابنُ سعد لأروى بنت عبد المطلب عمة النبيّ الأخرى شعرين في رثائه عليه السلام[١٩] ، والأول مطلعه :

ألا ياعين ويحك أسعديني بدمعك ما بقيتِ وطاوعيني

والثاني مطلعه :

ألا يا رسول الله كنتَ رجاءنا وكنتَ بنا بَرّا ولم تكُ جافيا

على أنّ ابن عبد البرّ قد نسب هذا الشعر الى صفية بنت عبد المطلب[٢٠].

ومن أبيات أروى :

وكنتَ بنا رَؤفا رحيما نبيّنا ليبك عليك اليوم من كان باكيا
لعمرك ما أبكي النبيَّ لموته ولكن لهرجٍ كان بعدك آتيا
كأنّ على قلبي لذكر محمد وما خِفتُ من بعد النبيّ المكاويا
صبرتَ وبلّغتَ الرسالة صادقا وقمت صليب الدين أبلجَ صافيا

(١٩) طبقات ابن سعد ج٢ ق٢ ص٩٣ .

(٢٠) كتاب الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر ، الطبعة الاولى حيدراباد ١٣١٨ هـ ، ص٢٠ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فلو أنّ ربّ الناس أبقاك بيننا سعدنا ولكن أمرنا كان ماضيا
عليك من الله السلامُ تحيّةً وأُدخلتَ جنّاتٍ من العَدْنِ راضيا

عاتكة بنت عبد المطلب :

وأما عاتكة بنت عبد المطلب عمة أخرى للنبي ﷺ فرويت لها ثلاثة أشعار في بكاء الرسول ﷺ [٢١] . واليكم بعض هذه الأبيات التي يتدفق فيها حزنها العميق لفراق النبي ﷺ :

عينيَّ جودا طَوالَ الدهر وانهمرا سكباً وسُحّا بدمع غير تعذير
ياعين فاسْحَنفري بالدمع واحْتفلي حتى الممات بسَجْل غير منزور

• • •

أعَيْني ماذا بعد ماقد فُجعتُمَا به تبكيان الدهر من وُلد آدم
فجودا بسَجْلٍ واندبا كل شارق ربيع اليتامى في السنين البوازم

• • •

ياعين فاحتفلي وسُحّي واسجمي وابكي على نور البلاد محمد
أنّى لكِ الويلاتُ مثلُ محمد في كل نائبة تنوبُ ومَشْهَدِ
فابكي المبارك والموفّق ذا التقى حامي الحقيقة ذا الرشاد المُرشدِ

هند بنت الحارث بن عبد المطلب :

ورثت رسولَ الله هند بنت الحارث بن عبد المطلب ابنة عمّهِ عليه السلام بأبيات رواها ابن سعد[٢٢] ، منها :

لقد أتتني من الأنباءِ مُعْضِلَةٌ انّ ابن آمنة المأمونَ قد ذهبا
انّ المبارك والميمون في جدث قد ألحفوه ترابَ الأرض والحَدَبا

(٢١) طبقات ابن سعد ج٢ ق٢ ص٩٣ ، ٩٤ .
(٢٢) المرجع نفسه ص٩٦ ، ٩٧ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أليسَ أوسطكم بيتـــاً وأكرمكم خـالاً وعماً كريماً ليس مؤتشبا

هند بنت أثاثة :

قالت هند بنت أثاثة بن عبّاد بن المطلب بن عبد مناف ثلاثة أشعار في رثاء النبي ﷺ[٢٣] . ويكفينا هنا أن ننقل واحدا من هذه الأشعار كما رواها ابنُ سعد دلالة على طبيعة شعرها :

قـد كان بعـدك أنبـاءٌ وهنبثـةٌ لو كنت شاهدها لم تكثر الخطبُ
إنّا فقدناك فقد الأرض وَابِلَها فاحْتَلْ لقومك واشهدهم ولا تَغِبِ
قد كنتَ بدرا ونوراً يستضاء به عليك تنزل من ذى العزة الكتبُ
وكان جبريلُ بالآيات يحضرنا ففاب عنّا وكلُّ الغيبِ محتجبُ
فقـد رَزئتُ أباً سهلاً خليقتُه محض الضريبـة والأعراق والنسبِ

عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل :

وقد روى ابنُ سعد لعاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل قصيدة في رثاء الرسول ﷺ[٢٤] ، منها هذه الأبيات التي تصور فيها حالة أزواج النبي ﷺ بعد انتقاله الى رحمة الله :

وأمْسَتْ نِساؤكَ ما تستفيقُ من الحزن يعتادُها دَيْنُها
وأمْسَتْ شواحبَ مثل النصا ل قد عُطّلت وكبا لونُها
يعالجن حزناً بَعِيدَ الذهابِ وفي الصدر مكتنعٌ حَيْنُها
يضرّبْن بالكفّ حُرَّ الوجوه على مثله جادها شُونُها

أمّ أيمن :

ولا تبقى من النساء القائلات الشعر في رثاء الرسول ﷺ الا واحدة

(٢٣) المرجع نفسه ص٩٧ .

(٢٤) طبقات ابن سعد ج٢ ق٢ ص٩٧ ، ٩٨ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وهي أم أيمن مولاة النبي ﷺ فرويت لها أبيات تبكي فيها النبيّ ﷺ[٢٥] ، منها :

فلقد كانَ ما عملتُ وصولا ولقد جاء رحمةً بالضياءِ
ولقد كان بعد ذلك نوراً وسراجاً يضيء في الظلماء
طيب العود والضريبة والمعد ن والخِيم خاتم الأنبياءِ

أخلاق النبي ﷺ وشخصيته على ضوء المراثي

لنحلل الآن مراثي الشعراء للرسول ﷺ لنتبين كيف تصور وتبرز تلك الأشعارَ شخصيته عليه السلام وأخلاقه وشمائله . ومن البديهي أن المرثية التي قيلت في شخص ، تلقي أضواء على شخصيته وأخلاقه ، لأن الشاعر حين يرثي الفقيد يذكر في شعره محاسن أخلاقه ومميزات شخصيته ، عن عمد أو عن غير قصد . والشعراءُ يفعلون ذلك في المديح أيضا ، ولكنّ المدح كثيراً ما تشوبه عناصر التملق والتكلف والتظاهر وعدم الاخلاص . وأمّا المرثيةُ فقائلها يكون ، في أكثر الأمر ، صادقا مخلصا فيما يقول ، وبذلك يجيءُ شعره صورة صادقة حقيقية لشخصية الميّت وأخلاقه . فإذاً ، نستطيع أن نستمد صورة واضحة لشخصية النبي ﷺ وأخلاقه وشمائله من المراثي التي قيلت فيه عليه السلام .

شرف نسبه :

وأول شيء لا بدّ أن يذكر حين ندرس شخصية رجل هو نسبه ، لانّه هو الأصل الذي تتولد منه . ومشهور أنّ النبي ﷺ كان قد وُلد في أشرف بيوت العرب أي بني هاشم ، في أشرف قبيلتهم ، أي قريش فهو أفضل العرب بيتاً ، وأعزهم نفراً . وأخلصهم نسبا قد ذكر هذه الحقيقة

(٢٥) المرجع نفسه ج٢ ق٢ ص٩٨ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

شُعراءُ المراثي للرسول ﷺ في أبيات متفرقة . ومنها[٢٦] :

لـــه حسب فـوق كل الأنـــا م من هـــاشم ذلـــك المُرتَجَى
(كعب بن مالك)

أعيْنَي جُودا بـالـدموع السـواجم على المصطفى بالنّور من آل هاشم
(عاتكة بنت عبد المطلب)

أليس أو سَطَكم بيتـــاً وأكرمَكم خـالاً وعمّاكريمـا ليس مؤتشبـا
(هند بنت الحارث بن عبد المطلب)

وحقيقةُ أن محمداً ﷺ كان ابن آمنة قد وردت في هذين البيتين :

لقـد أتتني من الأنبـاء مُعضِلـة ان ابن آمنـة المأمـون قـد ذهبـا
(هند بنت الحارث بن عبد المطلب)

يـابكر آمنـة المبـارك بكرهـا ولـدتـه محصنـة بسعـد الاسعـد
(حسان بن ثابت)

فضائل أخلاقه :

قد جمع الله في شخص النبي ﷺ من خصال الكمال ومكارم الأخلاق مالا يحيط بها حدّ ولا يحصرها عدّ . فقال سبحانه وتعالى في كتابه الكريم : ﴿ وإنّك لعلى خلق عظيم ﴾[٢٧] . فقد جاء في « المُوطّأ » أن رسول الله ﷺ قال :« بُعثتُ لأتمم مكارم الأخلاق » وقالت عائشة رضي الله عنها : « كان خَلقه القرآن » .

وإنّ المراثي التي قيلت في رسول الله ﷺ تلقي الضوء على كثير من محاسن أخلاقه عليه السلام وإن لم تذكرها جميعاً . وما أصدق من قال هذا البيت :

(٢٦) ذُكرت أسماء الشعراء بين القوسين .

(٢٧) سورة القلم الآية ٤ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

كان المصفاةَ في الأخلاق قد علموا وفي العفاف فلم نعدل به أحدا

(أبو بكر الصديق)

كان رسول الله ﷺ برّا ورؤوفا ورحيما الى الحد الأقصى . وهذا ما يذكره هذا البيت :

ألا يارسول الله كنتَ رجاءنا وكنتَ بنا برّا ولم تك جافيا

(أروى بنت عبد المطلب)

وكان صافيا طاهرا من جميع الأدناس الأخلاقية :

من فقد أزهر صافي الخلق ذي فخر صاف من العيب والعاهات والزورِ

(عاتكة بنت عبد المطلب)

وكان مثلا كاملا للبرّ والعدل والتقى والحلم والندى والحزم والعزم والدّعوة الى الخير والرحمة . فانظر الى هذه الأبيات كيف تصور هذه الأخلاق السّامية الشريفة :

على المُرتَضى للبر والعدل والتُّقَى وللدين والاسلام بعد المظالم

على الطاهر الميمون ذي الحلم والندى وذي الفضل والداعي لخير التراحم

(عاتكة بنت عبد المطلب)

حازما عازما حليما كريما عائدا بالنوال برّا تقيّا

(صفية بنت عبد المطلب)

وأمّا الوفاء فلم يخلق له فيه نظير ، وهذه الحقيقة مذكورة في هذين البيتين :

ولامشى فوق ظهر الأرض من أحد أوفى بذمة جار أو بميعاد

(حسان بن ثابت)

أعفّ وأوفى ذمةً بعد ذمة وأقرب منه نائلا لا ينكد

(حسان بن ثابت)

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وكان قائدا مظفرا ذا شجاعة نادرة فيقول الشاعر :

وَاري الـزنـاد وقـوّاد الجيـاد إلى يـوم الطراد اذا شُبّتْ بـأجـذالِ

(حسان بن ثابت)

وأما الخطة التي غلبت على أخلاق محمد ﷺ فهي الرحمة . وكيف لا وهـو الـذي قـال عنـه سبحانـه وتعـالى : (ومـا أرسلنـاك الا رحمـة للعالمين) .[٢٨] فكان غاية في الرحمة والرأفة والعطف والشفقة والسماحة والعفو . وهذه الحقيقة مذكورة في الأبيات التالية :

فـاتـح خـاتم رحيم رؤوف صـادق القيـل طيب الأثـوابِ

مشفـق نـاصـح شفيـق علينـا رحمـة من إلهنـا الـوهـاب

(صفية بنت عبد المطلب)

رحمـة كان للبريـة طرا فهـدى من أطـاعـه للسـداد

(صفية بنت عبد المطلب)

فلقـد كان مـا علمتُ وصـولا ولقـد جـاء رحمـة بـالضيـاء

(أم أيمن)

عفـوٌ عن الـزلات يقبـل عـذرهم وان يحسنوا فـاللهُ بـالخير أجـودُ

وان نـاب أمر لم يقـوموا بحملـه فمن عنـده تيسير مـا يتشـدّد

(حسان بن ثابت)

وكان رسول الله ﷺ كما وصفه القرآن : ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم ﴾[٢٩] ، وهذه هي الفكرة التي يتضمنها هذا البيت لحسان بن ثابت :

عزيزٌ عليه أن يجوروا عن الهدى حريصٌ على أن يستقيموا ويهتدوا

---

(٢٨) سورة الانبياء الآية ١٠٧ .

(٢٩) سورة التوبة ، الآية ١٣٨ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ومن مظاهر رحمة رسول الله ﷺ إسعادُه للفقير والمعدم والضعيف ، وحمايتُه للحق ، وحملُه كَلَّ الناس ونصرته على النوائب . فانظر هذه الابيات كيف تصور هذه الناحية من أخلاقه عليه السلام :

حامي الحقيقة نسّال الوديقة فكْ (م) كاكُ العُناة كريمٌ ماجد عال
على رسول لنا محض ضريبته سمح الخليقة عفّ غير مجهالِ
كشّاف مكرمة مطعام مَسْغَبة وهاب عانية وجناء شِمْلالِ
(حسان بن ثابت)

فابكي المبارك والموفق ذا التقى حامي الحقيقة ذا الرشاد المرشد
من ذا يفك عن المُغَلل غله بعد المُغيب في الضريح المُلْحَد
(عاتكة بنت عبد المطلب)

ثمال المعدمين وكُلِّ جارٍ ومأوى كل مضطهَد غريب
(صفية بنت عند المطلب)

ولذلك لما مات رسول ﷺ فقد الفقراء والمساكين كل خير كما يقول الشاعر :

نبِّ المساكين أنّ الخير فارقهم مع النبيّ تولّى عنهم سَحَرا
(حسان بن ثابت)

وأما اليتامى فكان تفجُّعهم أكبر ، لأنهم فقدوا بموته ﷺ كافلهم وربيعهم :

فجودا بسجل واندبا كل شارق ربيع اليتامى في السنين البوازم
(عاتكة بنت عبد المطلب)

محمد رسولاً لله :

درسنا الى الآن أخلاق محمد ﷺ وشمائله إنساناً . ونبحث الآن كيف تُلقي المراثي التي قيلت فيه ضوءاً على شخصيته نبياً مرسلاً من عند الله .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

واما صفاته رسولاً لله فليس أدل عليها من هذه الآية الكريمة : ﴿ يا أيها النبيّ إنا أرسلناك شاهداً ومبشّراً ونذيرا ○ وداعياً الى الله باذنه وسراجاً منيرا ﴾ .(٣٠) والأبيات الآتية تبيّن هذا الجانب من شخصية رسول الله :

وكان بشيراً لنا منذراً ونوراً لنا ضوؤه قد أضا
فانقذنا اللهُ في نوره ونجّى برحمته من لَظَى

(كعب بن مالك)

على الطاهرِ المرسلِ المُجْتَبَى رسول تخيّره ذو الكرم

(صفية بنت عبد المطلب)

قد كنتَ بدراً ونوراً يستضاء به عليك تنزل من ذي العزة الكتبُ
وكان جبريلُ بالآيات يحضرُنا ففاب عنّا وكل الغيب محتجب

(هند بنت أثاثة)

نبيٌّ كان يجلو الشكّ عنّا بما يُوحَى اليه وما يقولُ
ويهدينا فلا نخشى ضلالاً علينا والرسولُ لنا دليلُ

(ابو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب)

ولا شك أنّ محمداً ﷺ أدى الرسالة ، وبلّغ ما أُنزل اليه من ربه على أحسن وجه . وهذا ما تقول الشاعرة :

صبرتَ وبلغتَ الرسالةَ صادقاً وقُمتَ صليبَ الدين أبلجَ صافيا

(أروى بنت عبد المطلب)

محمد خاتم الأنبياء :

ومن الحقائق التي قررها القرآن ، وأجمعت عليها الأمةُ الاسلامية كلّها أن محمداً ﷺ هو خاتم أنبياء الله ولانبي بعده . وقد ذُكرت هذه

(٣٠) سورة الأحزاب ، الآيتان : ٤٥ ، ٤٦ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الحقيقة في البيتين الآتيين :

يـا خـاتم الرسـل المبـارك ضـوؤه صلّى عليـــك منزّلُ الفرقـــانِ
(فاطمة الزهراء)

طيب العـود والضريبـــة والمعـ ـــدنِ والخِيم خـــاتم الأنبيـــاء
(أم أيمن)

الرسول ﷺ نوراً وسراجاً :

كثيراً ما وصف النبيُّ ﷺ نوراً او ضياءً او سِراجاً يُستضاء به . وهذا نظراً لما وصف الله به محمداً ﷺ في الآيتين المذكورتين آنفاً ﴿ ياأيها النبيُّ إنا أرسلناك شاهدا .... ﴾ الخ فقد جعله سراجاً منيرا . والأبيات الآتية قد استخدمت هذا المعنى :

من الـذي كان نـورا يستضـاء بـه مبـارك الأمر ذا حـزم وإرشـاد
(حسان بن ثابت)

كان الضيـاء وكان النـور نتبعـه وكان بعـد الإلـه السمـع والبصرا
(حسان بن ثابت)

نخص بمـــا كان من فضلـــه وكان سراجـا لنـا في الـدّجى
وكان بشيراً لنـــا منـــذرا ونـوراً لنـا ضـوؤه قـد أضـا
(كعب بن مالك)

فلقـد كان مـا علمت وصـولاً ولقـد جـاء رحمـة بـالضيـاء
ولقـد كان بعـد ذلـك نـوراً وسراجـاً يضيءُ في الظلمـاء
(أم أيمن)

نـوراً اضـاء على البريـة كلهـا من يهد للنّور المبـارك يهتـدي
(حسان بن ثابت)

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

محمد أشرف الخلق :

وما خصّ الله تعالى به محمداً ﷺ من اخلاق كريمة ومحامد جميلة جعلته أفضل الخلق على الاطلاق وارفع الناس درجة ، واكرمهم منزلة عند الله . وهذا حق لا يقبل الجدال عند المسلمين كافة . ولم يغفل شعراء المراثي للرسول ﷺ هذه الحقيقة ، بل أوردوها في أشعارهم . فننقل منها بعض الأبيات على سبيل المثال :

على خير من حملت ناقةٌ وأتقى البرية عند التقى
على سيّدٍ ماجدٍ جحفل وخير الأنام وخير اللها
(كعب بن مالك)

والله ما حملت أنثى ولا وضعت مثلَ النبيّ رسول الأمّة الهادي
(حسان بن ثابت)

خيرَ البرية إنّي كنتُ في نَهَرٍ جارفأصبحتُمثلَالمفردِالصادي
(حسان بن ثابت)

أعظم الناس في البرية حقا سيّد الناس حُبُّه في القلوب
(صفية بنت عبد المطلب)

وانّك خير من ركب المطايا وأكرمهم اذا نُسبوا جُدودا
(هند بنت اثاثة)

فُجعنا بخير النّاس حيا وميتا وأدناه من ربّ البرية مقعدا
(كعب بن ثابت)

وجدير بنا أن نختتم هذا البحث ببيت قاله حسان بن ثابت شاعر رسول الله ﷺ من قصيدة له في رثائه عليه السلام :

وما فَقد الماضون مثلَ محمّد ولا مِثْله حتى القيامة يُفْقَدُ

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net